اللحن الأخير

يسرى الأيوبي

- ليتنا كنا مجنونين! أليس الجنون رائعا ملهما؟ أمضّ قلبـي أسـره بـين أضلعي ياغيداء.. جعله الكتمان وحشيا يودّ لو يقرض أغلال الحديـد لينطلـق.. فوارحمتاه للإنسان الضعيف تعصف به أنواء هواه، ولا يجد مرفأ يرسو عنده..

وانتفض كيانها وكاد يجرفها تيار عاطفة دفّاق لايقاوم وهما منفـردان فـي هدأة شاعرية في منزلها على شاطئ البحر.. ولم تجرؤ على لقاء عينيه فراحـت تحدق في الفضاء البعيد وراءه، في الشفق القاني خلف مراوح فروع الزيزفون..

كانا مرتكزين الى حاجز الحديقة الرحبة المتدرجـة علـى أكمـة ضـجت بالأزاهير البرية وتعانق فيها الشجر وقد أظلتهم نارنجة تدفّ ناشـرة جناحيهـا، والريح الزفزافة ترعش أوراق الشجر بهمسات الحنين وتعطر الجو بأرج زهـر الليمون، والزرزور يرسل لحنا رتيبا غير منظـور، والفراشـات المحوّمـة ذات الأجنحة المرصعّة بجواهر ألقة نشوى تمتص شفاه الزهور، وفي الخارج خـضم من زهر المرغريت وشقائق النعمان وقفت تشهد موكب السيل المتفق في انحداره نحو البحر، ونجاد ووهاد يانعة الإخضرار تناثرت فيها بيوت الصيادين. والبحـر استخفه الفرح وحلا له مداعبة الصخرة الصامتة النفور فطاردها ملحّا بموجات إثر موجات في شبه خليج عميق ضيق تحت الحاجز.. وتتطاير رذاذ حانق على وجه غيداء فاهتزت وتمتمت وكأنها في شبه غيبوبة سحرية..

- نعم ليتنا كنا مجنونين! ولكن أنستطيع ياوائل؟ إنه قيدنا، نحـن فرضـناه على نفسينا بإرادتنا، ولو تحررنا من خزعبلات العقل لما وسـعنا التحـرر مـن واجبات الضمير، لسنا من النوع الذي يستطيع بناء سعادته على شقاء الآخرين!

واغرورقت عيناها بالدموع.. فشد على يديها بصمت بليغ وهامـت عينـاه الحزينتان بعينيها الخضلتين، فانتظمتها رعشة، ومسحت برفق شعره الفـاحم بيـد واجفة لتخفف عنه شجنه، فأغمض عينيه وفي ملامحه نشوة وعذاب ويأس باك.. وأحست بروحها تذوب له وجدا، وبقلبها ينفذ اليه نصل بارد لما ستحمّله من عذاب

أقسى وأمرّ.. ثم تناول يدها ومرّ بها على جبينه الملتهب ووجهه الأسمر المنفعـل ذي المخائل النبيلة وداعب كفها شاربه الجميل ثم أراحها على صدره الأشعر عند فتحة القميص الناصع البياض.. وأخذت غيداء تراقب سـبابتهاعند فجـوة رقبتـه الملتهبة وقد تجاذبها قلق مبهم وجيع.. وهمس لها بصوته العميق:

- غني لي اللحن الأخير ياغيداء!

فابتسمت بأسى:

- ألا تعفيني؟ لاتدعني أشوه لك ذلك اللحن الرائع مرة أخرى.

- لابل ستفعلين.. أنت التي ألهمتني إياه اذ كنت بعيدا أتحرق شوقا للعـودة حتى أراك.. فدعيني أنتشي بسماعه من فيك.

- وائل! أواه ياوائل لاتذكرني بفشلي ولا تستمر في خداعي.. أنـت الـذي صدّد مواهبه الممتازة بأغلالي ليغذي في نفسي لهب الفن ويملأني حماسا وايمانـا بنفسي.. أنت الذي خلقتني معنى وروحا بألحانك.. أدركت الآن مداي، أنت تنتشي بحبي وليس بفني.. ان من يسمعني ليس أذن الموسيقار فيك ولكن قلبـه الخفـاق وأحاسيسه النشوى.. إنه حبي الذي يسحر فني فتختلج له جوانحك وترى فيه أل ـف موضع للجمال لايراها سواك.. عبثا كنت أحاول أن أبلغ المثـل الأعلـى الـذي رسمته لي.. لا.. لن أكون يوما مطربة ممتازة.. لن أحلق بعيدا.. هويت وهويـت بك معي.. ولولاي، لو كنت تسلم لحنك لمن هي أقدر مني لكنت إنسانا عظيما.

واختنق صوتها فوضع يده على كتفها وهتف بصوته العميق الحنون.

- أتصغين الى هراء حمقى لايفقهون للفن الرفيع معنى؟

- أكل الناس حمقى ياوائل؟ ولو فرضنا أنك على حق، فما الفائدة من فـن لايفهمه الجماهير ولا يتذوقونه؟ لم أبيت أن تسمح لها؟ كان من الممكن أن....

- ليس بالوصلات الطويلة والنبرات الصافية الرنانة يقوم الفن، بـل بمـا يلامس القلوب ويسمو بالروح.. ان غناءك يصدر من أعماقك شجيا عذبا معبرا.. انه سهل ممتنع.. ثورة في الفن وان لم تستعد له النفوس وتتذوقه بعد.. سأؤلف لك ألحانا جديدة ملائمة لصوتك.. فان كان هناك من خطأ فهو ذنب اللحن.

- أواه.. إن لحنك رائع لاشك فيه.. ولكنني أنا السبب.. أديته أسـوأ إداء.. لاأستطيع أن أذكر الإحتفال والجماهير بدون أن تعتريني رعدة باردة.. أما كان من الممكن أن ترفع اسمك الى الأوج بصوتها الساحر؟

- ساحر! هذا الصوت الذي لاحرارة فيه ولا جمال؟

- بل لأجلي تأبى أن تلحن لها وتبرز مواهبها، وتغضب الجميع.. بالله ألـم تحقد علي لأنني خيبت أملك؟

وضحك وائل:

- أحقد عليك؟ هذا جميل.. نعم أحقد حقدا لايعلم الاّ الله مداه.. أحقد علـى هذه الروح التي تلهمني وتجسد خيالاتي، وتغمـر روحـي بالـصفاء والغبطـة السماوية.. أحقد عليها لأنها تضنّ علي الآن بلحظة هناء تموج روحي فيهـا فـي عالم أثيري ساحر تتراقص في أضواء القمر الطالع وتنطلق من أسـر ذكريـاتي الأسية وحياتي الفاترة.. دعيني أنهل من خمرة الروح غني لي ياغيـداء اللحـن الأخير إنه عزيز علي.

أجابت هامسة متهدجة الصوت:

- باتت حياتي كلها أغنية أنت لحنها.. كم أتمنى لو أن لي حنجرة ألف بلبل غرد لأناغيك بأنغام الهية ملهمة.. بل لكم أتمنى لو تذوب روحي ويفنى كياني ان كان فيهما ما يثير كوامن مواهبك الخالقة المبدعة الى أقصى مـدى.. أردتنـي أن أكون ملهمتك.. وقلت لي إن الإلهام وظيفة في الحياة.. فليكن ما تريـد.. عرفـت واجبي وسأبقى وفية له حتى آخر رمق من حياتي.

وكان في لهجتها ما أثار شجنه فهتف:

- رباه! لم لم يعرف أحدنا الآخر منذ زمن بعيد؟

- لاتأس يا وائل.. فما كان هذا يغير من الأمر شيئا.. أتحسبني كنت أرضى بالزواج من رجل أحبه كل هذا الحب؟ لا، لايمكن أن أميت مثل هـذه المـشاعر الرائعة في ظل الزواج.. لو لم تكن فنانا لاختلف الأمر.. ولكنك روح شاردة تهفو

للجمال أنّى تراه.. ولا تستطيع إنسانة مهما أوتيت أن ترضي الـصورة المثاليـة التائهة في ضباب مخيلتك، ولا أن تروي حاجات قلبك المتوقد لحب جديد..

- استقرّ قلبي منذ رأيتك.. شفاني حبك من مرضي القديم.. وأسرت روحي الى الأبد..

- ما أبدع ما اقتصت الطبيعة لنفسها منا! بل مني أنا لأنـي لويـت عـن قصدها السوي..

- لم أفهم ما تعنيه.

- بل فهمت.. لم أجد رجلا أدق منك ملاحظة لما يهجس في قلبي.. كم كنت أعتز بحريتي!.. وأنت! فاذا كلينا موثق للآخر أكثر مما لو كـان يربطنـا عهـد مقدس..

- ان كان هذا ما تعنيه، فلم يفت الأوان بعد.. وسأحتمل كل شيء في سبيل سعادتك.

- انتظر حتى أنساك.. فصدقي يأبى علي أن أخدع رجلا وفي قلبي سواه..

- كنت أحسبك سعيدة ياغيداء وأنت كعبة الشباب والعشاق.

- أنت واهم يا وائل.. فليس أقسى من الوحدة التي أعاني منها.. تثور فـيّ حينا مشاعر لاأقوى على خنقها.. الأمومة والأسرة.. ولا تنس أنني فتـاة، حتـى مفارح الود البريء تؤبى علي.

وودت لو تخبره أنها ماتكاد تشعر بمثل تلك المتعة في مجلس لاكلفـة فيـه حتى تثور غيرة الزوجات على أزواجهن، ولو كانوا شيبا أدبرت عنهم الحيـاة.. والفتيات العازبات ليس أبغض لهن من يثور الإعجاب حولها حتى لو لم يكن لهن في الأمر مغنم.. وبعد.. أليست مصدر ألم لكل من يحبها؟ هل تستطيع أن ترضي كل القلوب وتمسح جراحها؟ لو كانت من النوع الذي يتلذذ بعذاب الآخرين ليرضي غرورها، لكان المجال واسعا لتتسلى وتسعد، ولكنها تكره أن تضيع حياتها في هذا العبث.. قلب واحد يسعد أحلامها لن تكون له، فما شأنها بالآخرين؟

- انني أحيا حياة راهبة بالرغم من الجو الذي يحيط بي.. أنسى في زحمـة المعجبين، ويخيل لي حينا أنها حياة جميلة ومـن الحمـق أن أسـتبدلها بجـدران أربعة.. فإذا ما خلوت الى نفسي أحسست بفراغ رهيب كقلـب هجـره الايمـان برحمة ربه.

- انك تقسين كثيرا على نفسك.

- ياوائل.. لقد تحديت المجتمع وأهلي لأبرهن للجميع أن الغناء فن شريف.. كنت أحس أنني طليعة عهد جديد، وأشعر أن علي واجبا في تغيير القـيم.. ومـن كان هذا شأنه يحرص دوما على أن يكون أهلا للثقة والإحترام، فكيف أبتذل فني؟ انني لاأراك في العام الاّ بضعة مرات وتثار حولي الأقاويل، حتى يوم عودتك من السفر لم أجرؤ على استقبالك، كان هناك من هم أحق مني بذلك.. والآن هلم بنـا الى داخل المنزل.. أحسب أنهم أعدوا لنا عشاء شهيا، ونتم حديثنا ونحن نتنزه في قاربي بعد العشاء..

كان الصيادون عند الشاطئ الرملي ينزلون أشرعتهم ويرسـون مـراكبهم عائدين بغنيمتهم من صيد البحر الى أكواخهم فهمست لنفسها:

انهم سعداء ولطالما رأيت ابتسامة القناعة تعلو وجوههم.. ان لهم هدفا.. أما أنا فلم يعد لي هدف!

ها هو ذا قربي أتمنى لو أذوب بين ذراعيه وأفنى فـي هنـاء سـرمدي.. تهزني أشواق ليس لها قرار لقبل عينيه ولمسة يده.. حتى الغلالة علـى ذراعـي استخفها الفرح إذ أحست بمجاورة ذراعه فاذا بها غلالة من لهب.. أيتمنى الجنون حبيبي؟ أهو مثلي لايقوى على كبح أعنة حب متوحش فـي صـدره؟ سـأريحك فاطمئن ياوائل.. ان لدي حلاّ أجمل.. لست أحب الجنون.. رأيتهـا يومـا.. فتـاة سمراء ذات عينين فاتنتين شاردتين، أضفى عليها الجنون جمالا أثيريا تحتضن يد طبيبها وتقول "الم تعدني أن أراه؟ افتح لي الأبواب! لم تحبـسني عـن حبيبـي؟" وراحت تستعطفه بإلحاح وهي تدور حوله بحركات رشيقة تفتش جيوبه وتتشبث به كلما حاول منها انفلاتا فترجوه بأعز عزيز أن يلبي نداءها.. فيلتفت الي الطبيـب

باسما ويقول "أتعلمين من هو حبيبها؟" انه هذا! وأشار الى حمار أشهب معصوب العينين يدور بساقية. لا ياحبيبي! ان حياتينـا أنبـل مـن أن نتمنـى لهـا هـذا المصيرالمجدب..

- ما بالك صامتة يا غيداء؟

- وما بالك أنت صامتا؟

- انني أفكر بلحن جديد يود أن ينبثق في خاطري، ولكن شيئا يعيقه.. أقتل ما يقتلني هذا الجمود الذي أحسه في خاطري.. انني بحاجة الى هزة عنيفة، الـى ألم كبير يتجاوز طاقة الإنسان فأنطلق وأفعل شيئا مدهشا..

* * *

كان القمر يرسل شعاعه الفضي في خط عريض علـى البحـر الـساجي والزورق يشق بمجاذيفه البحر.

وابتعدا في زورقيهما وراحت غيداء تغني لوائل لحنه الأخير، وردد الفضاء صدى أنغامها الشجية.. ولم تلبث أن اختنق صوتها بالبكاء فكفت، ونظر اليها وقد عقلت الدهشة لسانه:

- غيداء ما بك؟

- تذكرت أنني بلغت الخامسة والعشرين اليوم ولم أفعل شيئا مجديا..

- وماذا في الأمر؟ ان المستقبل أمامك مشرق زاه..

- ولكنني أقسمت.

- ماذا أقسمت؟

- أن أنتحر ان لم أحقق حتى هذه السن من وجودي غرضا..

وأمسك بذراعها وقد اضطرب كيانه:

- ماذا تقولين؟ هل أنت مجنونة يافتاة أم أنك تمزحين؟

- انني جادة، ولذا دعوتك اليوم لأودعك. سأنتحر على طريقتي الخاصة..

- وأية طريقة؟

- أتزوج أول من يتقدم الي.

- غيداء! هل أصابك مس؟

- أردت لنفسي حافزا رهيبا يفجر كل ما عندي من مواهب، وعرفت اليوم نفسي، وأدركت الى أي مدى يمكنني أن أحلق، ولا يشجعني شيء على المـضي. انني أستسلم للأقدار ترسم مصيري كما يحلو لها، ولن أحرك ساكنا..

- أتعبثين بي؟ ماذا دهاك الليلة؟

- انها الحقيقة يا وائل.. رسمت الأقدار خطتها بأسرع مما تصورت.. كان يوم الإحتفال عيد ميلادي وعدت والألم يهصر مهجتي.. وأحببت أن أستقل عربة لأستنشق الهواء النقي قبل أن تخنقني العبرات.. وكانت العربة تسير مسرعة، واذا بشاب يقفز اليها ويبادرني قبل أن أستفيق من المفاجأة.

- أحبك حبا جنونيا، فاذا لم تقبلي بي زوجا فستضطريني الى خطفك..

ووجدت نفسي أجيبه في يأسي:

- يبدو لي أنك أخلص من تقدم الي.. انني أوافق..

وجن جنون الفتى وهم أن يطوقني فدفعته عني:

- ليس الآن! بل في مثل هذا اليوم من العام المقبل نحتفل بعقد قراننا.

- لاأستطيع أن أنتظر هذا الوقت الطويل، ومن يـدريني أنـك لاتغيـرين فكرك؟

- في مثل هذا اليوم من الشهر المقبل..

ووافق على مضض وأضاف :

- اياك أن تعبثي بي! ربما دفعتني لعمل جنوني..

وسألها وائل بلهجة ينم فيها الغضب والسخرية:

- ومن هذا السعيد؟

- لست أعرف حتى الآن اسمه ولم أتبين وجهه..

- انها قصة طريفة.. أغرب ما سمعت في حياتي.. ولست أجد عليها جوابا الاّ أنك تستحقين دخول مستشفى المجاذيب ان كنت حقا ستغامرين هذه المغامرة..

- أنت تعرفني ان صممت على أمر.. لاأتراجع عن وعـد قطعتـه علـى نفسي..

- هل تسمحين لي اذن أن أشارك في فرحك وأمتّع ناظري بمرآك في ثوب عرسك الأبيض وأضع يدي على كتفك وأقبّلك كما لم أفعل يوما من جبينـك قبلـة التهنئة بحظك السعيد؟

وأمضتها السخرية اللاذعة ولكنها تجلدت وأجابت:

- لاشك ياوائل.. يجب أن تكون قربي لأتشدد فلا تخونني قواي..

- بودّي لو أغرق هذا القارب بي وبك أيتها المجنونة فأريحك وأرتاح مـن عذابي..

- هل نسيت بأنك بحاجة الى ألم كبير يتجاوز طاقة الانسان لينطلق فنك؟ لا ياوائلي العزيز ان حياتك أثمن من أن تهدر سدى في سبيل فتاة.. الفنان بحاجة الى حب.. أحب يا وائل ولكن لاتجعل الحب يمسكك عن بلوغ أهدافك العليا ولو كنت أنا هذه الحبيبة.. وستجد حتما من تنسيك إياي!

- لنعد! ولنرقب هذه المهزلة حتى نهايتها..

* * *

عادت الى الحاجز والى وحدتها.. ذهب وائل.. لن تكحل العين بمرآه بعـد اليوم.. وبقيت حقبة من الزمن تستعيد ذكرياتها معه والرعشات تهزها، وقبّلت كل ما لمسته يداه.. واستقبلت البحر بشجاعة.

- بي شوق اليك أيها البحر العظيم.. بي شوق الى اللانهائي أدفن فيه حياتي الخائبة.. لن أكون لك ياحبيبي ولن أكون لسواك.. ستحيا بعدي ياوائلي العزيـز، وسيتدفق لحنك قويا في نصرة الحب والجمال، وسأكون ملهمتك.. ألم تقل لـي أن الإلهام وظيفة في الحياة؟ أردت لي هذه المهمة وسأؤديها على أكمل وجه.. فان لم تكن حياتي عظيمة فليكن موتي ملهما.. وداعا ياوائل، وداعا يا أحب الناس الي!

وسمعت السكينة خبطة في الماء، وشـاهد القمـر رذاذا يتطـاير وجـسما يغوص! ولم يلبث أن عاد الكون الى إغفاءته والقمر يحملق في الفضاء اللانهـائي بغير مبالاة.

أما وائل فان غرق المطربة الذي انتشرت أنباؤه صعقه، فانهار وكاد يفقـد عقله، فلما صحا الى نفسه وجد أنه لم يعد قادرا على الإبداع، وسـيكون اللحـن الأخير آخر ألحانه.

* * *